

مداخلة الدكتور عبد الرؤوف سنو خلال ندوة في المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت 4 نيسان 2019 حول كتاب: المدن الأقطاب في لبنان.

استهل سنو كلمته بأن دراسة المدن الأربع، كأقطاب، في وحدة متكاملة، لها ما يسوغها، ذلك أنها الصفة التي يُطلقها عليها مجلس الإنماء والإعمار. وهي تشكّل وحدها مراكز رئيسية لغرف التجارة والصناعة والزراعة في لبنان، وشبكة مترابطة من المصالح المشتركة. ولفت إلى أنّ التعاطي مع المدن الأربع لم يكن على أساس مكوناتها الطائفية أو المذهبية: هذه سنيّة، وتلك شيعة، وثالثة مسيحية إلخ..، بل على أساس أنها تتألف من مجموعة من المواطنين اللبنانيين الذين يعيشون معاً على أرض واحدة تحت مظلة كيان سياسي واحد، وفي إطار واحد من الثقافة والعادات والحقوق السياسية والمصير المشترك. صحيح أنّ مدناً لبنانية أخرى لها مميزاتها وشخصياتها التاريخية، أضاف سنو، إلا أنّنا فضلنا أن يقتصر بحثنا على المدن الأربع.

وعن المنهجية الجديدة المتبعة في الكتاب، قال سنو إنه جمّع في توليفة واحدة، بين النصّ والصورة أو اللقطة والمستند. أما المستهدف بالكتاب، فهما جيل الشباب وشريحة واسعة من المهتمين الذين يريدون التعرف إلى تاريخ لبنان، ولا يجدون إجابات وافية أو مقنعة أو سريعة في مؤلف واحد وأقر بالمعلومات وبالوقائع العلمية. ومن خلال "النوافذ"، أضاف سنو، استطعنا تقديم معلومات إضافية للأكاديميين والمتخصصين، ولمن يريد الاستزادة في المعرفة.

واعتبر سنو أنّ بيروت أدّت دور الحاضنة لثقافات اللبنانيين، وإليها تسرّب الفكر والثقافة الغربيين، منذ القرن التاسع عشر. فأضحت مدينة العلم والثقافة المتفرجة لكثرة الإرساليات والقنصليات والشركات والمؤسسات والمدارس والجامعات والمراكز الثقافية الأجنبية. وهذا ما أعطاهم تلك "الخلطة" الثقافية الفريدة المنفتحة على أوروبا وعلى العالم، وأن تصبح عاصمة كوزموبوليتية. ولهذا السبب، وجد الجميع نفسه فيها، لأية طائفة انتمى أو جنسية، سواء أكان سياسياً أم رجل أعمال أم تاجراً أم كاتباً أم فنانياً أم مثقفاً أم شاعراً وأديباً أم صحفياً أم موظفاً وعاملاً، أم نازحاً من الأطراف، أو ساعياً إلى تعليم جيد لأبنائه، كما الطبابة والاستشفاء.

وخلص سنو إلى أن الكتاب توصل إلى الاستنتاجات الآتية:

- تأثر لبنان على مر التاريخ بكل أنواع الحضارات التي تعاقبت عليه، ما أدى إلى انبثاق "ثقافة لبنانية" منفتحة.
- شكلت المعالم الأثرية، في المدن الأقطاب الأربع شواهد حيّة على مكانتها في تاريخ الدول والإمبراطوريات التي حكمتها على مرّ العصور.
- تأثرت النهضة العلمية والثقافية والفنية في المدن الأقطاب، بدرجة أو بأخرى، بالنهضة الأوروبية؛ فاقتبس اللبنانيون الذين تفاعلوا معها ما تعلموه منها واختبروه.
- حافظت مدينة بيروت على مركزيتها الخدمانية والثقافية، على الرغم ممّا مرّ عليها من ويلات حرب لبنان، بينما تمكّنت المدن الأقطاب الأخرى، رغم تأثرها بتلك الحرب، من بناء شخصيتها الثقافية المحلية، واقتصاد يتناسب مع خصائصها الطبيعية والجغرافية.

- إنّ "التعددية الثقافية" القائمة على الاعتراف المتبادل بـ "الأخر" والقبول به وبخصوصيته والعيش معه، غير متوافرة في لبنان، ماضياً ولا حاضراً.
- باستثناء توحدهم ضدّ فرنسا خلال معركة الاستقلال العام 1943، فقد حافظ اللبنانيون على تطلّعهم نحو الخارج للاستقواء على بعضهم البعض.
- ينحو اللبنانيون إلى التسوية بعد كلّ أزمةٍ داخلية تعصف بهم: "الميثاق الوطني"، و"اتفاق الطائف"، و"اتفاق الدوحة"، وانتخاب الرئيس عون؛ لكنهم لم يتوصّلوا، ولو لمرة واحدة، إلى وضع تسوية تؤدّي إلى إرساء سلم دائم في ما بينهم، وبناء دولة قويّة ذات سيادة.

وختم سنو بكلمة شكر للدكتورين زيادة وسراج على مداخلتيهما المميزتين، وللمعهد الألماني للأبحاث الشرقية، كما لمؤسسة شاعر الفيحاء سابا زريق بشخص رئيس مجلس إدارتها الدكتور سابا زريق على رعايتها ودعمها من أجل أن يرى كتاب "المدن الأقطاب" النور.